فصل في أهمية علم الحديث

اعلم أنَّ أنف العلوم الشرعية ومفتاحها ومشكاة الأدلة السمعية ومصباحها، وعمدة المناهج اليقينية ورأسها، ومبنىٰ شرائع الإسلام وأساسها، ومستند الروايات الفقهية كلها، ومأخذ الفنون الدينية دِقّها وجلّها، وأسوة جملة الأحكامِ وأُسَّها، وقاعدة جميع العقائد وأصلها، وسماء العبادات وقطب مدارِها، ومركز المعاملات ومحط حارِّها وقارها، **هو علم الحديث الشريف** الذي تُعرف به جوامع الكلم، وتنفجر منه ينابيع الحكم وتدور عليه رحى الشرع بالأثر، وهو ملاك كل أمر ونهي، ولولاه لقال من شاء ماشاء، وخبط الناس خبط عشواء وركبوا متن عمياء، فطوبىٰ لمن جدَّ فيه، وحصل منه علىٰ تنويه، يملك من العلوم والنواصي، ويقرب من أطرافها البعيد القاصي، ومن لم يرضع من درِّه، ولم يَخُض في بحْرِه، ولم يقتطف من زهْرِهِ، ثم تعرَّض للكلام في المسائل والأحكام، فقد جار في ما حكم، وقال علىٰ الله ما لم يعلم، كيف وهو كلام رسول الله ﷺ، والرسول أشرف الخلق كلهم أجمعين .. وهو تلو كلام الله تعالىٰ، وثاني أدلة الأحكام، فإن علوم القرآن وعقائد الإسلام بأثرها وأحكام الشريعة المطهرة بتمامها، وقواعد الطريقة الحقة بحذافيرها، وكذلك الكشفيات العقليات بنقيرها وقطميرها، تتوقف علىٰ بيانه ﷺ.. فكل قول يصدقه خبر الرسول ﷺ فهو الأصح للقبول، وكل ما لا يساعده

الحديث والقرآن، فذلك في الحقيقة سفسطة بلا برهان، .. وما الحق إلا فيما قاله ﷺ أو عمل به، أو قرره أو أشار إليه، أو تفكَّر فيه، أو خطر بباله، أو هجس بخلده واستقام عليه،.. فياله من علمٍ سيط بدمه الحق والهُدىٰ، ونيط بعنقه الفوز بالدرجات العُلىٰ[١].

* **أهمية الإسناد وفضله، وبيان أنه من خصائص هٰذِه الأمة:**

لقد خص الله ﷻ هٰذِه الأمة المحمدية بالإسناد، وأن الوقائع كانت تروىٰ بالسند المتصل ساعة حدوثها إلىٰ أن أُستودعت في بطون الكتب، ينقلها الرواة طبقة بعد طبقة، وهٰذا الإسناد لا يوجد عند الأمم الأخرىٰ، حيث أغفلته، ولم تتنبه إليه.

قال أبو عليّ الجيّاني ت٤٩٨هـ: «خص الله تعالىٰ هٰذِه الأمة بثلاثة أشياء لم يُعطها مَنْ قبلَها: الإسناد، والأنساب، والإعراب»[٢]، وروي هٰذا أيضًا عن أبي بكر محمد بن أحمد.

وقال محمد بن حاتم بن المظفر: إن الله قد أكرم هٰذِه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم.

فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي أخذوها عن غير الثقات.

وهٰذِه الأمة إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتىٰ تتناهىٰ أخبارهم؛ ثم يبحثون أشد البحث حتىٰ يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط،

---

(١) «الحطة في ذكر الصحاح الستة» ص ٣٥، ٣٦ بتصرف يسير.

(٢) «تدريب الراوي» ٢/ ١٦٠.

والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهًا أو أكثر حتىٰ يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عدًّا، فهٰذا من أفضل نعم الله علىٰ هٰذِه الأمة، فلْيُوزِع الله شكر هٰذِه النعمة.

وقال أبو حاتم الرازي ت٢٧٧هـ: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسول إلا في هٰذِه الأمة[١].

ويقول عبد الله بن طاهر ت٢٣٠هـ: رواية الحديث بلا إسناد من عمل الزمنىٰ، فإن إسناد الحديث كرامة من الله ﷻ لأمة محمد ﷺ[٢].

وقال الشافعي ت٢٠٤هـ: مَثَل الذي يطلب العلم بلا حجة -يعني: بلا إسناد- مَثَل حاطب ليل يجمع حزمة حطب فيه أفعىٰ يلدغه وهو لا يدري[٣].

وقال يزيد بن زريع ت١٨٣هـ: لكل دين فرسان، وفرسان هٰذا الدين أصحاب الأسانيد.

ويقول عبد الله بن المبارك ت١٨١هـ: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء[٤].

وعنه أيضًا: مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم.

---

(١) «فتح المغيث» للسخاوي ٣/ ٣.

(٢) «فتح المغيث» للسخاوي ٣/ ٤.

(٣) «المدخل إلى الصحيح» للحاكم ص٢، «فتح المغيث» للسخاوي ٣/ ٤.

(٤) مقدمة «صحيح مسلم» باب: بيان أن الإسناد من الدين. «الإلماع إلىٰ معرفة أصول الهداية وتقييد السماع» للقاضي عياض ص١٩٤، «معرفة علوم الحديث» للحاكم ص٤٠.

ويقول أيضًا: بيننا وبين القوم القوائم، يعني: الإسناد[١].

وسئل عن حديث عن الحجاج بن دينار، عن النبي ﷺ فقال: إن بين الحجاج وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي[٢].

وقال حماد بن زيد ت ١٧٩هـ: وقد ذاكره بقية بن الوليد بأحاديث، فقال حماد: ما أجودها لو كان لها أجنحة! يعني: أسانيد[٣].

وقال مالك بن أنس ت ١٧٩هـ: في قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. قال: قول الرجل: أخبرني أبي عن جدي.. إلخ. يقصد الرواية بالسند المتصل[٤].

وقال سفيان الثوري ت ١٦١هـ: الإسناد سلاح المؤمن، إذا لم يكن معه سلاح، فبأي شيء يقاتل؟![٥].

وقال شعبة بن الحجاج ت ١٦٠هـ: كل علم ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل. يريد بالعلم هنا: الحديث[٦].

---

(١) قوائم الحديث: يعني: إسناده، فجعل ابن المبارك الحديث كالبيت لا يستقيم بدون أعمدة أو قوائم فكذا الحديث. والأثر رواه مسلم في المقدمة باب: بيان أن الإسناد من الدين.

(٢) المفاوز: الأرض البعيدة عن العمران والماء ويخشىٰ فيها الهلاك، وهٰذِه العبارة فيها ٱستعارة جميلة. لأن الحجاج من تابعي التابعين، فأقلُّ ما يمكن أن يكون بينه وبين الرسول ﷺ ٱثنان: التابعي والصحابي، ولذا قال: مفاوز، أي: ٱنقطاع كبير.

(٣) ٱنظر: «فتح المغيث» للسخاوي ٣/ ٤.

(٤) «المدخل» للحاكم ص٢.

(٥) رواه السمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» ص ٨ .

(٦) رواه الخطيب في «الكفاية في علم الرواية» ص٢٨٣ باب: ما جاء في عبارة الرواية. والسمعاني في «أدب الإملاء والاستملاء» ص٧، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» ص٥١٧ باب: القول في التحديث والإخبار.

obeikandl.com

وقال الأوزاعي ت ١٥٧هـ: ما ذهاب العلم إلا ذهاب الإسناد.

وقال عبد الله بن عون ت١٥١هـ: كان الحسن البصري يحدثنا بأحاديث لو كان أسندها كان أحب إلينا.

وقال أبو سعيد الحداد[١] ت ٢٢١ هـ: الإسناد مثل الدرج، ومثل المراقي، فإذا زلت رجلك عن المرقاة سقطت[٢].

وقال مطر الوراق ت ١٢٥هـ: في قوله الله تعالىٰ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]. قال: إسناد الحديث.

* **مكانة السنة :**

القرآن الكريم هو الأصل الأول للدين، والسُّنة هي الأصل الثاني، ومنزلة السُّنة من القرآن أنها مبيِّنة وشارحة له تُفصل مُجْمله، وتوضح مُشْكله، وتقيِّد مُطلقه، وتُخصص عامَّه، وتَبْسُط ما فيه من إيجاز.

* **حجيتها :**

قال الشوكاني: إن ثبوت حجية السُّنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يُخالِف في ذلك إلا مَنْ لا حظَّ له في الإسلام.[٣]

ولم يُخالف في الاحتجاج بالسنة إلا الخوارج والروافض، وخالف المعتزلة بتحكيم عقلهم في السنة، فتمسك هٰؤلاء بما بدا لهم من فهم لظاهر القرآن وأهملوا السنن، فضلوا وأضلوا، وحادوا عن الصراط

---

(١) هو أحمد بن داود الواسطي.

(٢) رواه الخطيب في «الكفاية في علم الرواية» ص٣٩٣.

(٣) «إرشاد الفحول» ص٢٩.

المستقيم.

وقد ٱستفاض القرآن والسُّنَّة الصحيحة الثابتة بحجية كل ما ثبت عن الرسول ﷺ، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

فهل قال أحد أن الأمر باتباع النبي ﷺ متعلق بحياته فقط؟ وإذا كان الأمر باق، فهل يأمرنا الله ﷻ بشيء مبهم وغير موجود لو ٱعتبرنا أن السُّنة الحقيقية غير موجودة!

قد قال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]

وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فإذا كان الأمر كما يظن منكرو السنة فما فائدة أمر الله لرسوله ببيان القرآن؟!